العنوان والنص في السور القرآنية المبدوءة بالقَسَم
سورة "العاديات": دراسة دلالية تركيبية [1]

عبدالمحسن أحمد الطبطبائي

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكويت

الملخص

يتناول هذا البحث جانبين؛ أما الجانب الأول فَنَظريٌّ، يهتم بمفهوم العنوان ووظائفه وقيمته، وعلاقته بالنص القرآني؛ وذلك لكون القرآن الكريم خطاباً لغوياً كاملاً، يتضمن سوراً متعددة، ذات عناوين منفردة؛ إذ إنّ تلك السور القرآنية المتعددة مجموعةٌ من النصوص المكونة للخطاب القرآني الكامل، كما أنّ لكل خطاب بؤرة مركزية تتوسط العمل، وتكون بمنزلة القصدية التي يريدها الكاتب أو المؤلِّف، وتعدّ العناوين أهم أنواع البُؤَر المركزيّة المكونة لقصدية الخطاب التي تلخصها، أو تختزلها؛ ولذلك اهتم النصيون بدراسة العنوان، وسَلَكوا لدراسته مَسْلَكَيْنِ؛ أحدهما ينطلق من العنوان؛ لفهم المتن، والثاني ينطلق من النص؛ لتعرُّف دلالة عنوانه.

وأما الجانب الثاني فَتَطبيقِيٌّ، يدرس التحليل النصّي للسور القرآنية المبدوءة بالقَسَم، تلك السور الخمس عشرة ذات المقاميّة العالية، والأجزاء المتماسكة، التي تسير على نسق متوازٍ من حيث البناء التركيبي، ويتخذ البحث سورة العاديات نموذجاً لهذه الدراسة، فيتناول ما فيها من مشاهد وأجزاء، ويدرس العلاقة بين عنوانها ونصّها، كما يتناول سيميائية السورة، والشخصيات المتناقضة الكائنة فيها، وعنوانها الذي يعود إلى نصِّها المترابط بالقسَم وجوابه، المتباينين تركيباً ودلالة. ويتناول أيضاً المحور التقابلي أو الاستبدالي في نص السورة على صورة الشخصيات المضادة؛ حتى تتضح فكرة التفكيك والتركيب التي تتبنّاها السيميائية في تحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية صوتياً ونحوياً وصرفياً ودلالياً.

وبذلك يؤكد البحث أنّ التفسيرات المعجمية لشخصيات السورة وفضاءاتها لم تكن كافية لتأويل النص؛ إذ يتطلّب ذلك دراسة الألفاظ ضمن سياقات وعلاقات يحددها التأويل، كما يسعى إلى تأكيد شمولية سورة (العاديات) – نحويّاً، من خلال تركيبها والقَسَم الكائن فيها، ودلالياً، من خلال أحداثها وشخصيّاتها، وتضافر أجزائها – في تأدية مقصدها، وعودة جميع معانيها إلى عنوانها، الذي يمثِّل الأيقونة السيميائية، والبؤرة المركزية، وكذلك تأدية وسائل الاتساق النصي وظائفها الكاملة في تماسك النص في السورة.

مقدمة

يتناول هذا البحث العلاقة بين العنوان والنص في السور القرآنية المبدوءة بالقسم، وذلك من خلال دراسة قائمة على معطيات نحو النص، والسيميائية، ويتخذ سورة العاديات نموذجاً لهذه الدراسة.

وتسعى هذه الدراسة إلى الوصول إلى تفسير نصّي للقرآن الكريم، يقوم على أسس النظريات اللسانية الحديثة، ويعنى بالقضية المحورية والبؤرة المركزية للنص؛ وذلك للوصول إلى فهم متكامل للدلالة والمقصد.

وتسعى الدراسة أيضاً إلى اكتشاف أسرار نصية في تأويل القرآن الكريم، ومن ثم تأكيد إعجازه، وتفرد نظمه.

كما تهدف الدراسة إلى اكتشاف دلالات النص القرآني، ومقاصده العميقة، وشمولية خطاباته ونصوصه، واستدارة معانيه بعضها على بعض، وعلاقة أسماء السور بالنصوص الخاصة بها.

وتهدف الدراسة أيضاً إلى إبراز فكرة البؤرة المركزية للنص، التي تتوسط العمل الفني، وتكون جوهر النص السردي؛ إذ تتضح من خلالها قصدية النص، ودلالاته.

وأشير ههنا إلى الدراسات السابقة التي تناولت العنوان والنص في الخطاب القرآني تناولاً تركيبيّاً دلاليّاً، وهي الدراسات الآتية:

1 – سيمياء العنوان في الدرس اللغوي، للدكتور عيسى عودة برهومة، 2007م[2].

2 –سورة العاديات: دراسة مقطعية، للدكتور هلال علي محمود، 2009م[3].

3 –سورة المرسلات: دراسة في لسانيات النص، للدكتورة فاتن محجازي، 2010م[4].

4 –سيميائية العنوان في السور القرآنية ذوات البؤرة الاستفهامية ونظرية نحو النص، للدكتور عبدالفتاح الحموز، 2014م[5].

غير أنّ هذه الدراسات السابقة تختلف عن هذا البحث، وذلك من حيث العرض، والمنهج، والموضوع، والنتائج، والمراجع.

ويقوم هذا البحث على منهج تحليلي، يعتمد على دراسة النص القرآني دراسة عميقة من مستويات متعددة؛ نحوية، وصرفية، ودلالية، ومعجمية، وسياقية؛ لاكتشاف الأسرار النصية التي يحملها؛ للوصول إلى النتائج.

وقد خلص هذا البحث مؤلفاً من مقدمة تتضمن أهميته، وأهدافه، والدراسات السابقة في مجاله، وتمهيداً عن الخطاب القرآني؛ ليكون مدخلاً للموضوع، ثم صلب البحث الذي يتضمن جانبين؛ الأول نظري، يتناول مفهوم العنوان ووظائفه وقيمته، وعلاقته بالنص القرآني، والثاني تطبيقي، يتناول التحليل النصّي لسورة العاديات، بما فيها من مشاهد وأجزاء، وأثر العنوان، والقَسَم، وجوابه، في تأويل السورة، يلي ذلك الخاتمة، بما فيها من نتائج وتوصيات.

مفهوم العنوان ووظائفه وقيمته في النص

اختلف في تعريف العنوان وتحديد مفهومه من الجانبين اللغوي والأدبي قديماً وحديثاً، وعلى الرغم من ذلك، فهناك تعريفات معيارية تحدد المفهوم بشيء من الدقة، وتفتح مجالاً غير ضيّق أمام المؤوّل، فمن هذه التعريفات ما ذكره ابن سِيدَه (458هـ): "العُنوان والعِنوان والعِنيان: سِمةُ الكتاب"[6]، ويقصد بـ(سِمته): علامته، والمدخل إلى رحابه، والعنصر البارز فيه[7].

أما العنوان في مصطلح النصيِّين، فهو -كما يعرفّه (هويك) -: "مجموعة من العلامات اللسانية التي تظهر على رأس نص ما؛ قصدَ تعيينه، وتحديد مضمونه الشامل، وكذا جذب جمهوره المستهدف"[8].

فيكون العنوان من خلال التعريف السابق مدخلاً لتعيين النص وقراءته، فهو إذن "المفتاح الإجرائي الذي يمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا على فك رموز النص، وتسهيل مأمورية الدخول في أغواره، واستكشاف تشعباته الوعرة"[9].

وأمّا وظائف العنوان، فقد تناولها النصيّون والسيميائيون، وبينوا أنّ معظمها يُدرَك من خلال النص، وبذلك فإنّ النص هو الذي يحدد طبيعة الوظيفة المعنية، ولهذا قد لا تُدرَك تلك الوظيفة إلا بعد إتمام قراءة النص، فتُفهم وظيفة العنوان ورسالته من خلال النص[10].

وقد حاول أولئك حصرها في مجموعة محددة من الوظائف؛ فيرى (جينيت) أنّ وظائف العنوان ثلاث، الأولى: التعيين (الوسم والتسمية)، والثانية: تحديد المضمون (الوصف والإيحاء)، والثالثة: إغراء الجمهور، كما يرى أنه ليس شرطاً أن تجتمع كلها في العنوان، إلا أنّ الأولى ضرورية، وأنّ الأخريين اختياريتان[11].

ويمكن أيضاً تقسيم وظائف العنوان من حيث التحليل الفني خمسة أقسام، هي:

1- **الوظيفة القصدية**: وتكون بفعل المرسِل بالعنوان.

2 - **الوظيفة التفكيكية**: وتكون بفعل القارئ بالعنوان.

3 - **الوظيفة الإحالية**: وتكون من العنوان إلى النص.

4 - **الوظيفة الشعرية**: ويختص بها العنوان نفسه.

5 - **الوظيفة التأثيرية**: وتكون بفعل العنوان بالقارئ.

وأهم وظيفة من الوظائف الخمس السابقة هي الأخيرة؛ لأنها تعنى بالعلاقة بين القارئ والعنوان، إذ تجسّد الضغط الذي يمارسه العنوان على القارئ ليحدث فعل الاستجابة؛ لأن العلاقة بين القارئ والرسالة تقوم على مجموعة من المفاوضات التي تزداد تعقيداً وتشويقاً كلما بعدت العلاقة بينهما[12].

ومن هنا يعد العنوان عتبةً رئيسة من عتبات النص؛ لأنه يحدث أول اتصال نوعي بين المرسِل والمتلقّي؛ ولأنه "يهب النص كينونته بتسميته، وإخراجه من فضاء الغُفْل إلى فضاء المعلوم"[13]، ولأنه ذو وظيفة سيميائية "تقولُ شيئاً وتعني شيئاً آخر" [14]؛ وذلك من خلال حمل دلالات مخالفة للدلالة المتعارف عليها عن طريق استخدام آليات مختلفة، من مثل التشبيه، والاستعارة، والإيحاء، والترميز.

وتجدر الإشارة إلى أنّ قيمة العنوان تكمن في عدم كشف كلّ شيء، فهو- على الرغم من كلِّ وظائفه التي تمد القارئ بالتحليل المناسب- يبقى عنصراً غير حاسم دلالياً، وعدم الحسم هذا هو سمة العنوان الناجح؛ لأن العنوان الناجح يخبِر، لكن عليه أن يكون محدود الإخبار في الوقت نفسه[15].

البؤرة المركزية بين النص وعنوانه

ينبغي الإشارة هنا إلى "أنّ لكل خطاب بؤرة مركزية، أو فكرة محورية، أو عنصر جوهري، تتوسط العمل، وتكون بمثابة القصدية التي يريدها الكاتب أو المؤلِّف، مثل: الحبكة، هي جوهر النص السردي"[16].

كما أنّ تلك البُؤَر والفِكَر والعناصر المكونة لقصدية الخطاب قد تلخصها، أو تختزلها، أو تسهم في تأويلها كلمة واحدة، أو كلمتان، أو أكثر، قبل بدء الخطاب، وذلك هو عنوان الخطاب.

وإذا ما تناولنا نصاً أو أكثر من النصوص القرآنية، فإننا سنجد فيها العناصر النصية التي يتسم بها الخطاب القرآني الكامل؛ إذ إنّ الخطابات والنصوص تحلَّل تأويلياً باعتبارها دلالة كليّة قائمة على الاتساق والتوافق[17]، وسنجد عناوينها ذات إيحاءات مهمة في التأويل، وهي كذلك لا تحيد عن القصدية التي سعى إليها ذلك الخطاب، فالنص القرآني يتمتع بستة عناصر نصية، هي: الاتساق، والتوافق، والقصدية، والإعلامية، والمقامية، والمقبولية، ويتفرد بكونه يخلو من التناص؛ لأنه يقدم خطاباً جديداً، متميزاً من إبداع الخالق الواحد سبحانه وتعالى[18].

وإذا ما نظرنا إلى القرآن الكريم- كونه خطاباً كاملاً - وجدنا عنوانه هو (القرآن)، ووجدنا لهذا العنوان أسماءً أخرى، مثل: (الكتاب)، و(الفرقان)، و(الذكر الحكيم)، فنجد تعدداً للعناوين بما لا يعارض العنوان الأشهر، وكل هذه العناوين تعبِّر عن البُؤَر والفِكَر والعناصر المكونة للخطاب، وتسهم في تأويلها.

ثم إذا ما نظرنا إلى العناوين الداخلية للخطاب القرآني، والممثلة في عناوين السّوَر

القرآنية، وجدناها عناوين مختلفة، ووجدناها أيضاً لا تحيد – من قريب أو بعيد – عن مدلولات عنوان الخطاب الكامل ومقاصده.

وينبغي الإشارة هنا إلى وجود ضابطَيْن- كما يذكر السيميائيون- في جعل العنوانِ عنواناً؛ أولهما: مسؤولية المؤلِّف في اختياره، وثانيهما: القصدية القابعة وراء ذلك الاختيار[19].

ومن هنا تأخذنا سيميائية العنوان لتحليل الخطاب الكلي، أو النص الداخلي، وتفكيك عناصره وتركيبها، وبيان مقصديته، ويسهم في ذلك مستوى العنوان من حيث الوضوح أو التعقيد، فإن العنوان عنصر محكَم يساعد في التأويل، ويوازي النص "كونه مجموعاً معقّداً أحياناً، أو مربكاً، وهذا التعقيد ليس لطوله أو قصره، ولكن مرده مدى قدرتنا على تحليله وتأويله"[20].

ومهما يكن، فإن العنوان هو الذي "يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص ودراسته"[21]، ويكون عتبة حقيقية "تفضي إلى غياهب النص، وتقود إلى فك الكثير من طلاسمه"[22]، فهو الرسالة الأولى التي تصلنا من عالَم النص بصفته آلة لقراءة النص، وباعتبار النص آلة لقراءة العنوان، فيكون بين العنوان والنص علاقة تكاملية، فكأنّ النص الفني يتكون من نصَّين يشيران إلى دلالة واحدة في تماثلها، مختلفة في قراءاتها، هما النص وعنوانه؛ أحدهما مقيّد موجز مكثَّف، والآخر طويل[23].

ولذلك فإنّ "تشكيل العنوان في أي نص من النصوص لا يكون اعتباطيّاً، ولكنه يرتبط بمتن النص أيما ارتباط، بل إنه جزء لا يتجزّأ من المتن"[24]. وهو على الرغم من دلالته المعجمية الفقيرة يظلّ خاضعاً لاحتمالات دلالية مختلفة، وهي لا تتضح إلا من خلال القراءة التأويلية[25].

وينبغي الإشارة إلى أنّ العنوان عنصر قلق عند النصيين، فهو غير مفهوم بغير النص، ولا دلالة له إلا من خلال النص، فهو "يفاجئ المتلقّي بكسر أفق التوقُّع لديه، فهو يفهم من العنوان شيئاً ما، وقد لا يفهم أيّ شيء، ثم يصطدم بالنص؛ ليفهم رسالة العنوان"[26].

وقد أشار النصيّون إلى أمر خاص بالتأويل فيما يتعلق بالنص وعنوانه، فأيهما يفسر

الآخر؟ هل العنوان يفسر النص، أم النص هو الذي يفسر العنوان؟ الحقيقة أنه "يوجد من الكُتّاب من يضع العنوان قبل النص (الكِتاب)، ثم يأتي بالنص؛ ليبرر هذا العنوان، الذي يُجمِل ما سيفصله ويفسره النص ككل، وربَّما لا"[27].

ولذلك جعل النصيون لدراسة عنوان أي نص مَسْلَكَيْنِ؛ أحدهما ينطلق من العنوان (القمة)؛ لفهم المتن النصي (القاعدة)، والثاني ينطلق من النص المدروس؛ لتعرُّف دلالة عنوانه، ويبدو أنّ الـمَسْلَك الثاني أكثر جدوىً؛ لأن كثيراً من العنوانات لا تسعفنا في فهم النصوص، ولا تقربنا من مضمونها، بل إنّ العنوان عادةً ما ينحو منحَى الإيهام والتشويش والغموض[28].

ومما سبق يتضح أن العنوان والنص قد ينعكسان، فيكون العنوان أثراً من آثار النص؛ إذ نسعى إلى تفسيره من خلال معطيات النص، لا العكس. وهذا يحتمله الجانب اللغوي لمدلول العنوان، فقد يكون معناه الأثر، وذلك كما يقول ابن سيده: "وفي جَبْهَتِه عُنْوانٌ من كَثْرَةِ السُّجودِ؛أَي أَثَر. حكاه اللحياني، وأَنشد:

وأَشْمَطَ عُنْوانٌ بِهِ مِنْ سُجودِهِ كَرُكْبَةِ عَنْزٍ مِنْ عُنوزِ بَنِي نَصْرِ "[29]

علاقة العنوان بالاستهلال والخاتمة

يرتبط العنوان عادةً بالاستهلال والخاتمة في النص الأدبي، فأمّا الاستهلال، فهو عتبة الدخول الثانية إلى النص، وهو يقدّم للقارئ ركائز مهمة في تأويل العنوان، وكثيراً ما يكشف عن صورته الأيقونية، ولا سيما في السور القرآنية المبدوءة بالقسم. إضافةً إلى ذلك، فإنّ الاستهلال يسوِّغ النص، ويبني عالماً تخييليّاً، ويعطي معلومات أكثر عن الحكاية المروية[30].

أمّا الخاتمة، فهي عتبة الخروج من النص، وهي تكثِّف الوحدات النصية لفظيّاً ودلالياً في صورة سردية مضغوطة، وتحمل تدفّقاً معجميّاً يواجه كلّاً من الاستهلال والعنوان، "ولهذا تأتي الخاتمة بمنزلة تأويل من الكاتب لكلِّ ما سبقها من وحدات سردية"[31].

ويتضح مما سبق أنّ تحديد الرؤية في النص يتوقف على تحليله من العنوان إلى آخر

جزء منه، مأخوذاً بعين الاعتبار في ذلك التحليل جميع العناصر التي تؤلف النص، من مثل الشخصيات، والأحداث، والفضاءات، والوصف، والحوار، وتعدد المستويات اللغوية.

العنوان والنص في سورة العاديات

تسير السور القرآنية المبدوءة بالقَسَم على نسق متواز من حيث البناء التركيبي، فهي جميعاً تفتَتح بحرف القَسَم، ويليها الـمُقسَم به، وهو الذي يحمل دائماً اسم السورة (عنوانها)، إلا في سورتي (البروج، والطارق)، فقد حمل العنوانَ المضافُ إلى الموصوف من الآية الأولى منهما، ثم تتتابع معطوفاته – في ما عدا ثلاث سور: (النجم، والطارق، والعصر) التي خلت من المعطوفات – وبعد ذلك يأتي جواب القَسَم (الـمُقسَم عليه)؛ ليعطي إشاراتٍ ويفك رموزاً كان يحملها الـمُقسَم به، وقد يكون جواب القَسَم محذوفاً – كما في سور: (النازعات، والبروج، والفجر) – وبعد ذلك تتوالى مشاهدُ السورةِ المتوافقة مع ما بدأت به، إلى أن تصل إلى الخاتمة المكثَّفة.

والسور المبدوءة بالقسَم ذات مقاميّة عالية؛ إذ إنّ جميعها سور مكيّة، وذلك يتناسب أيّما تناسب مع المقام الذي نزلت فيه، إذ هو مقام تكذيب وإعراض، فجاء القَسَم في الاستهلال؛ ليؤكّد الخبر، ويقوّي الحجّة؛ ذلك بأنّ القَسَم كما يعرِّفه النحويّون: "جملة يؤكَّد بها الخبر"[32]، وبخاصة إذا جاء القَسَم بحرف الواو، كما هو في استهلالات السور المشار إليها؛ وذلك لأنّ هناك أقساماً لا تعنى بالتأكيد، فليس كلُّ قسم يؤكد الخبر، إذ إنّ الباء يقسم بها على جهة الاستعطاف نحو: بالله أحسِنْ إليَّ[33].

والسور المبدوءة بالقَسَم الصريح بحرف الواو خمس عشرة سورةً، وفيما يأتي عرض لهذه السور والآيات الأولى منها:

1 - **سورة الصافات:** ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾.

2 - **سورة الذاريات:** ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾.

3 - **سورة الطور:** ﴿وَٱلطُّورِ﴾.

4 - **سورة النجم:** ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

5 - **سورة المرسلات:** ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾.

6 - **سورة النازعات:** ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾.

7 - **سورة البروج:** ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾.

8 - **سورة الطارق:** ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

9 - **سورة الفجر:** ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾.

10 - **سورة الشمس:** ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾.

11 - **سورة الليل:** ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾.

12 - سورة الضحى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾.

13 - **سورة التين:** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾.

14 - **سورة العاديات:** ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾.

15 - **سورة العصر:** ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾.

وهناك سورتان بدأتا بفعل القسَم المسبوق بـ(لا) الزائدة، أو النافية على أحد الأقوال[34]، وهما:

1 - **سورة القيامة:** ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

2 - **سورة البلد:** ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾.

وبما أنه يصعب في بحث قصير كهذا تحليل جميع هذه السور بما يتناسب مع المعطيات التي تحملها، فقد اخترت سورة العاديات لتكون نموذجاً للسور المبدوءة بالقَسَم؛ وذلك بسبب حجمها المناسب للتحليل، ولتوافر المعطيات العلائقية والروابط التركيبية والمعجمية بين عنوانها ومضمونها النصي؛ إذ ارتكز ما حواه المضمون الدلالي والمشاهد المتتابعة في هذه السورة على إيحائية عنوانها (العاديات)، كما ارتبط ارتباطاً وثيقاً بأيقونته الحاضرة، ولم يكن هذا الارتباط، ولا ذاك الارتكاز بمنأى عن القَسَم الذي حمل اسم السورة، وكوّن عنصر

الاستهلال فيها، وفيما يأتي قراءة تحليلية لهذه السورة:

أولاً- العنوان (البؤرة والأيقونة)

جاء العنوان في سورة العاديات من كلمة واحدة، هي (العاديات)، على صيغة اسم الفاعل في صورة جمع المؤنث السالم، ومفردها (العادِيَة)، من (عَدا يَعْدُو)، ومعناها خيل المقاتلين، وقد أعطى مجيء العنوان على صيغة اسم الفاعل سمة الفاعلية والقوة والإثارة، كما تضمنت صيغة الجمع دلالة زائدة على دلالة المفرد أو المثنى؛ لأن صيغ الجموع تدل على هيئات وأحوال لمعانٍ خاصّة، جعلت للدلالة عليها تسميات كلٌّ بحسب ما يقتضيها مقامها[35].

وقد جاء العنوان في بعض الروايات: (وَالعاديات)[36]، مصحوباً بواو القَسَم، وذلك يُعطي إشارات إلى أهميّة القَسَم في هذه السورة، ومقدار الترابط بين تركيب السورة، وبين المعاني التي تحملها، وذلك من خلال الـمُقسَم به الذي وُسِمت به السورة، والـمُـقسَم عليه الذي يعكس الدلالات ويكثّفها.

وعنوان (العاديات) عنوانٌ ذو صورة أيقونيّة مؤثِّرة؛ إذ يرى القارئ من خلاله مشهد الخيل التي تجري في المعركة، ويلمَس عرقها، ويسمع صوت عَدْوها، ويُحِسّ جهدها؛ وذلك لمعرفته المسبقة بتلك الصورة التي تتمثَّل بالخيول في ساحة القتال، "فالمعرفة الأولية تجعل المتلقّي يستحضر في ذهنه صور الخيل التي تجسّد القوة والفروسية والمكانة الاجتماعية؛ لأن الخيل أيقونة تحمِل تراثاً عميقاً ومكثّفاً من الدلالات"[37].

وتجدر الإشارة إلى أنّ أيقونة الخيل في عنوان هذه السورة تحمل دلالات إيجابية في وعي المتلقّي العربي، وهذه الدلالات تحيل إلى نصوص أخرى، كما أنّ لها لديه بُعداً تاريخياً ودينياً؛ "لأنه يعتمد في ذلك على المرجعية الدينية التي اكتسبها من ثقافته التاريخية، ومرجعيته الدينية؛ فتاريخياً، كانت الخيل أداةً مهمة من أدوات تحقيق النصر، ودينياً، فإنها تتألف من إشارتين دينيتين؛ الأُولى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [38]، وثانيهما قول الرسول - صلى الله

عليه وسلّم – : (الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القِيامَةِ)[39]، وفي ضوء هذا التصور يصبح العنوان حاملاً لدلالة مهمة تحيل إلى نصوص أَخرى"[40].

ثانياً- الاستهلال (القَسَم)

بدأت سورة (العاديات) بواو القَسَم، ثم الـمُقسَم به، ثم مجموعة من المعطوفات، وهذه البداية تمثِّل المشهد الأول في السورة، وقد جاء هذا المشهد في الآيات الآتية:

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥﴾[41].

وفي هذا المشهد أقسَم اللهُ سبحانه بـ(العاديات ضبحاً)، ثم عطف عليها (الموريات قدحاً)، ثم (المغيرات صُبحاً). وفيما يأتي المعاني والدلالات التي تشكلها هذه الأقسام الثلاثة:

1- ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾: بدأت الآية بحرف القَسَم، ثم الـمُقسَم به، وهو (العاديات)، ومعناه من العَدْوِ، وهو الجَريُ بسرعة، أي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة، والمقصود بها الإبل، على قول علي، رضي الله عنه[42]، أو الخيل، وهو الظاهر من السياق[43]. و(ضَبْحاً): منصوب على تقدير فعل، أي: يضبحْنَ ضبحاً، أو على الحال، بمعنى: ضابحاتٍ، والضبح: صوت أنفاس الخيل عند عدوها، وهو المعهود المعروف من الخيل، وهو صوتٌ جهير يخرج من أفواهها عند العَدْو الشديد، ليس بصهيل، ولا حمحمة، ولا رُغاء، وأصله للثعلب، واستُعير للخيل[44]، والمعنى: أُقسِم بالخيل التي تعدو وتضبح ضبحاً.

وفي ترجيح الخيل على الإبل في تفسير الآية قال الرازي: "واعلم أنّ ألفاظ هذه الآيات تنادي أنّ المراد هو الخيل؛ وذلك أنّ الضبح لا يكون إلا للفرس، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر والحافِر للإنسان، والشفتان للمُهْر، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز. وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل، وكذا قوله: (فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا)؛ لأنه بالخيل أسهل منه بغيره" [45].

ومما سبق يحاول البحث أن يضيِّق الاحتمالات، ويصل إلى المعنى الأوضح؛ ذلك أن من خصائص الدراسة النصّية الاستغناء عن الاحتمالات المتعدِّدة في التأويل، وتوجيه الدلالة إلى التأويل الأَوْلى وفقاً للمعطيات النصّية، والسياقات المعرفية، وذلك الذي يحتِّم أنْ يكون المقصود بالعاديات الخيل لا الإبل؛ للأسباب التي ذكرت آنفاً.

وما يهمنا هنا أنّ لفظ الـمُقسَم به (العاديات) هو لفظ عنوان السورة نفسه، وهذا يدل على أهمية معناه في هذه السورة، ومركزيته وأيقونته المستمرة في نص السورة.

2- ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾: الفاء هنا للعطف، و(الموريات) اسم معطوف على (العاديات)، ومعناه من الإيراء، وهو إخراج النار، و(قدحاً): منصوب على تقدير فعل، أي: يقدحْنَ قَدحاً، أو على الحال، بمعنى: قادحاتٍ، والقَدْح: الضَّرْب، يقال: قَدَح فأورى: إذا أخرج النار بالقَدْح، والمراد بها الخيل التي تخرج النار بحوافرها حين ضربها الأحجار، والمعنى: أُقسِم بالخيل التي يخرج من ضربِ حوافرِها الأرضَ النارُ.

ويلمَح من مجيء المصدرين في الآيتين السابقتين (ضبحاً، قدحاً) بإيقاعهما وجرسهما أنهما يصوّران عنف الخيل الماضية إلى الجهاد[46].

3- ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾: الفاء للعطف أيضاً، و(المغيرات) اسم معطوف على ما سبق، وهو من الإغارة: أي الهجوم على العدو بغتة بالخيل، وهي صفة الفرسان، لكن جاءت نِسبَتُها إلى الخيل بالمجاز والمناسبة، ولّما كانت الإغارة الكائن عنها الثبور والويل أروع ما تكون في أعقاب الليل، قال: (صُبْحاً)، وهو ظرف للزمان، أي ذات دخول الصباح[47]، والمعنى: أُقسم بالخيل المغيرة على العدو بغتة في وقت الصبح.

ويلاحظ من مجموع الآيات السابقة أنّ استعمال الصفات الآتية: (العاديات، الموريات، المغيرات) "تكمل الصورة وتمنحها بعدها المعنوي والنفسي"[48].

4- ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾: هذا عطف على اسم الفاعل المتقدِّم، أو على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، والمعنى: واللاتي عَدَوْنَ، فأوريْنَ، فأغَرْنَ، فأَثَرْنَ[49]، و(نقعاً) مفعول به، والنقع: الغبار، والمراد إثارة الغبار حين العَدْو، ويكون مختلفاً، تارةً يميناً، وتارةً شمالاً، وتارةً أماماً، وتارةً وراء، بحسب الكَرّ والفَرّ في المصاولة والمحاولة،

تارةً أثر الهارب، وأخرى في مصاولة المقبل المحارب، فينشأ عنها الغبار الكثير لإثارة الهواء له واصطدام بعضه ببعض لتعاكسه بقوة الدفع من قوائمها وما تحركه، وكان الـمُقسَم به منظوراً فيه ذاته، ونتيجة القَسَم منظوراً فيها إلى الفعل بادئ بدء، مع قطع النظر بالأصالة عن الذات، عطف على اسم الفاعل بعد حله إلى (أنْ) وصِلتِها، فقال: (فَأَثَرْنَ بِهِ) بفعل الإغارة، ومكانها وزمانها من شدة العَدْو (نقْعاً)، أي غباراً مع الأعناق والصِّياح والزجر بالنقْع؛ حتى صار ذلك الغبار منحبكاً ومنعقداً عليها[50]، كما أنّ الضمير في (به) قد يرجع إلى (العَدْو) المستفاد من قوله: (والعادِيات)، وتكون الباء للسببية، وقد يكون مرجع الضمير فيه هو الوادي[51] (مَكان العَدْو)، "أي هَيَّجْنَ بمكان سيرها، كنايةً عن غير مذكورٍ؛ لأنّ المعنى مفهوم"[52]، وتكون الباء للظرفية. وفي كلا التأويلين يحيلنا الضمير إلى شيء من العنوان (البؤرة والأيقونة)، إما إلى مصدره، وإما إلى مكان سيره؛ لتتكامل الرؤية في فعل الخيل، وهذا كله وصف متكامل للمشهد الذي تفعله الخيل عند الإغارة. والإحالة الحاصلة في هذا الموضع هي إحالة مقامية؛ حيث اللفظ المحال إليه غير مذكور في النص، ولكن مستفاد منه، ويمكن معرفته من سياق الموقف[53].

5- ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾: هذا عطف أيضاً على المعنى الذي تقدَّم، و(جمعاً) مفعول به؛ أي صِرْنَ في وسط الأعداء؛ لأن المغير يتوسط الجمع عند اختلال حالهم، فيفرِّق شملهم بتلك الخيل وذلك الغبار. فالخيل دخلت في وسط ذلك الجمع؛ وذلك لشجاعتها، وقوتها، وطواعيتها، وشجاعة فرسانها[54]، والضمير هنا إمّا أن يرجع إلى العَدْو المستفاد من قوله: (وَالْعَادِيَاتِ)، إحالةً مقامية، فيكون المعنى: فوسطن بالعَدْو، وإما أنْ يرجع إلى (النقع)، وعلى التأويل الثاني تكون الإحالة بالضمير هنا من قبيل الإحالة القبلية الداخلية، وهي أكثر أنواع الإحالات دوراناً في الكلام[55].

ثالثاً- جوهر النص (جواب القَسَم)

يأتي المشهد الثاني من مشاهد السورة بذكر جواب القَسَم (الـمُقْسَم عليه)، ويتضمن هذا الجواب أموراً ثلاثة، وذلك في الآيات الآتية:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾[56].

وفي هذا المشهَد ثلاث صفات للإنسان (كنود لربه)، (شهيد على ذلك)، و(شديد الحب للخير)، وفيما يأتي قراءة تحليلية لهذه الصفات الثلاث.

1- ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾: هذا جواب القَسَم، والكَنُود بفتح الكاف: صيغة مبالغة على وزن (فَعُول)، ومصدره (الكُنُود)، بضم الكاف، وهو كُفران النعمة، و(الكَنُود) اسم للأرض التي لا تُنبت، ويطلق هذا اللفظ على الإنسان الكافر الجاحد، ومن يزدري القليل، ولا يشكر الكثير، وينسى كثير النعمة بقليل المحنة، ويلوم ربه في أيسر نقمة، وهو ضد (الشَّكور)، وقد جاء جواب القَسَم هنا مصدّراً بحرف التوكيد (إنَّ)؛ ليؤكد هذه الحقيقة، ثم ذكر لفظ (الإنسان) المقترن بـ(أل) الجنسيّة؛ أي جنس الإنسان، بما له من الأُنس بنفسه، والنسيان لما ينفعه، ثم قال: (لِرَبِّه)؛ تذكيراً بإحسانه إليه، وتدبيره أمره، وتربيته إياه[57]، كما جاء لفظ (كَنود) مقترناً باللام المزحلَقة؛ ليحصل بذلك ثلاثة مؤكِّدات لفظية، القَسَم، والحرف الناسخ (إنَّ)، و(اللام المزحلَقة).

2 - ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾: هذا عطف على جواب القَسَم، بدأ بالحرف الناسخ (إنَّ)؛ للتوكيد أيضاً، ثم الضمير (الهاء) الذي يُحيل إلى أحد أمرين: إما (الإنسان)، وإما (الربّ) في الآية السابقة، وعلى هذا، فهناك تأويلان للآية بحسب المرجِع- سيأتي ذكرهما-، ثم جاء حرف الجر (على) داخلاً على اسم الإشارة (ذلك) المقترن بلام البُعد وكاف الخِطاب، ومرجِعه (الكُنود) مَصدَر (كَنود) الذي في الآية السابقة، ووجود اسم الإشارة هنا يعد من قبيل الاستبدال القولي في نحو النص، فكلمة (ذلك) جاءت لتحل محل لفظ (الكُنود)، أي: وإنه على الكُنود لَشهيد، فكان هذا الاستبدال عاملاً على التماسك النصي بين الآيات الكريمة، والاستبدال بهذا المعنى شكل بديل في النص، وهو وسيلة مهمة لإنشاء الرابطة بين الجمل[58]. ثم جاء خبر الحرف الناسخ (لَشهيد)، أي شاهد، وهو مقترنٌ باللام أيضاً، زيادةً في التوكيد. أمّا معنى الكلام،

ففي ذلك تأويلان بحسب مرجِع الضمير؛ الأول: أنّ الإنسان على كُنودِهِ لَشهيد، يشهد على نفسه بذلك؛ إمّا لأنه أمر ظاهر لا يمكن أن يجحده، وإما لأنه سيشهد على نفسه بذلك في الآخرة معترفاً بذنوبه، والثاني: أنّ اللهَ على ذلك الكُنود الواقع من الإنسان شاهدٌ عليمٌ.

ويبدو أنّ القولين قويّان، ولا يتعارضان تركيبياً ودلالياً؛ فمن يقول بالتأويل الأول ويجعل الضمير فيه عائداً إلى (الإنسان) نَظَر إلى الآية الآتية: (وإنّه لحب الخير لشديد)، حيث الضمير فيها عائدٌ إلى الإنسان قطعاً، فيجب أن يكون الضمير في الآية التي قبله عائداً إلى الإنسان أيضاً؛ ليكون النَّظم أحسَن. ومن يقول بالتأويل الثاني، ويجعل الضمير عائداً إلى (الربّ)، استند إلى أنّ الأَوْلى في الضمير أنْ يعود إلى أقرب المذكورات، والأقرب هنا هو لفظ (الربّ)[59]. كما جاء في بعض القراءات عن قتادة: (إنّ اللهَ على ذلك لشهيدٌ)[60] مستبدلاً بالضمير لفظَ الجلالة.

3 - ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾: هذا عطف ثانٍ على جواب القَسَم، بدأ بالحرف الناسخ المؤكِّد مرةً أخرى، ثم الضمير (الهاء) الذي يُحيل إلى (الإنسان)، ثم جاء الجار والمجرور (لحُبِّ الخَيرِ) بهذا التركيب الإضافي، أي لحبِّ المال[61]. ويلاحظ هنا مجيء لفظ (الخير) بمعنى (المال) في سياق ذكر (الخيل)، وعلى هذا يكون معنى الخير هنا: الخيلَ، الذي هو من المال عند العرب، وقد تكرر هذا في القرآن الكريم مرتين؛ الأولى في هذه الآية، والثانية في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾[62]، قال الطبري (ت310هـ): "وعَنَى بالخير في هذا الموضع الخيلَ، والعربُ فيما بلغني تسمِّي الخيلَ الخيرَ، والمالُ أيضاً يسمونه الخيرَ"[63]. وهذا يسمّى عند النصِّيين حديثاً (الاستبدال)، وهو من قبيل استبدال الاسم بالاسم (الخير بالمال)؛ وذلك تحقيقاً لأغراض صوتية وجمالية ودلالية.

ثم جاء خبر الحرف الناسخ (لَشَديدٌ) مؤكَّداً باللام أيضاً، والمعنى: إنّه للمال لشديد الحب[64]، أو إنّه من أجل حب المال لشديد: أي لَبخيل، إذ يقال للبخيل: شديد ومتشدد[65].

وإذا نظرنا إلى الآيات الثلاث السابقة من حيث الناحية التركيبية، وجدناها تسير على غير الرتبة التركيبية الطبيعية، فقد تقدمت المتعلقات (لربه)، و(على ذلك)، و(لحب الخير) على التوالي في الآيات الثلاث على ما تعلقت به، وهذا يدلّ على أهمية المتقدِّم من الناحية الدلالية، وكذلك يؤدي وظيفة لغوية جمالية من حيث تآلف الأصوات والألفاظ، ويعد ذلك عند البلاغيين من الترصيع مع التجنيس[66]، وهو في نحو النص من قبيل التكرار الجراماتيكي، وهو تكرار للطريقة التي تبنى بها الجملة وشبه الجملة، مع اختلاف الوحدات المعجمية التي تتألف منها الجمل[67]. ويقال عنه أيضاً: تجنيس التحريف، أو الجِناس المحرَّف، "وهو الذي يكون الضبط فيه فارقاً بين الكلمتين، أو بعضهما، وهو أيضاً: ما اتفق ركناه في أعداد الحروف، واختلفا في الحركات، سواء كانا من اسمين، أو فعلين، أو اسم وفعل، أو غير من ذلك"[68].

وقال الطبري في معنى الآية، وما فيها من مسائل في التركيب: "وقال بعض نحويِّي الكوفة: كان موضع لـ(حُبّ) أن يكون بعد (شديد)، وأن يضاف (شديد) إليه، فيكون الكلام: وإنّه لشديدُ حُبِّ الخير، فلما تقدم الحبُّ في الكلام، قيل: (شديد)، وحذف من آخره لما جرى ذكره في أوله"[69].

كما يلاحَظ في هذا المشهد أنه يسيرُ على غير ما سار به مشهد الاستهلال من حيث التركيب والإيقاع؛ وذلك لاختلاف المشهدين في الدلالة؛ "إذ جاءت آيات هذا المشهد هادئة التنغيمات، طويلة الكلمات؛ ليلائم كبير جحود الإنسان، وحبه الشديد للمال، على عكس المشهد الأول الذي جاء سريعاً خاطفاً قليل الألفاظ؛ ليتناسب مع جوّ السرعة لعدول الخيل، وإغارتها، وكيما ترسم بدقة صورة الخيل المغيرة الماضية إلى الجهاد، فجاءت هذه الآيات متناسبة مع شدة التعبير عن قوة الخيل المغيرة، والمعمعة، والجلَبة، والعجاج"[70].

رابعاً- الخاتمة (الخلاصة)

يأتي المشهد الثالث والأخير من مشاهد السورة بمخاطبة ذلك الإنسان الكَنود بثلاث آيات متتابعة مكثَّفة الدلالة والقصد، ملخِّصة ما سبق من القَسَم وجوابه بخلاصة شديدة الوضوح، وذلك في الآيات الآتية:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[71].

وهذا المشهد الأخير يبدأ باستفهام إنكاري، وينتهي بجملة خبرية توكيدية، وفيما يأتي تفصيل ذلك:

1- ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾: جاءت الهمزة هنا للاستفهام الإنكاري، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه الـمَقام، والمعنى: أيفعل ذلك الإنسان ما يفعل من المقابح فلا يعلم؟ فالضمير المستتر في (يعلمُ) على هذا التأويل يرجع إلى الإنسان، وهو من قبيل الإحالة القبلية الداخلية، و(إذا) هنا ظرف لمجرد الظرفيّة، والعامل فيه ما دلّ عليه قوله: (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِير)؛ أي: أفلا يعلم الإنسان في الدنيا أنه تعالى يجازيه إذا بُعْثِر[72].

وجاءت الإحالة هنا بالضمير المستتر في (يَعْلَمُ) الذي تقديره (هو)، إلى (الإنسان)؛ ليعزز الترابط النصي التركيبي بين الآيات. وعند بعض المفسرين يحتمل أن يكون مرجع الضمير إلى (الرب)، ويظل نوع الإحالة كما هو، وكون الترابط متحققاً، قال الغرناطي (ت741هـ): "ويحتمل عندي أن يكون فاعل (أفلا يعلمُ) ضميراً يعود على (الله)، والمفعول محذوف، والتقدير: أفلا يعلم الله"[73]. و(ما في القبور) نائب عن الفاعل، والمعنى: أخرج ما فيها من الموتى، يقال: بُعْثِر وبُحْثِر، بمعنىً؛ أي: أُثير وأُخرِج[74]، وجيء بلفظ (بُعثِر)؛ تعبيراً عن سهولة إخراج الإنسان يوم القيامة من قبره بالبعثرة السهلة، وعُبّر عنه بأداة غير العاقل (ما)؛ لأن الميت قبل البعث كان جماداً[75].

2- ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾: هذا عطف على (بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُور)، والمعنى: وإذا مُيِّزَ ما في القلب من الخير والشر[76]، وفي هذه الآية أيضاً ترصيع وتجنيس مع ما قبلها؛ ليكتمل التماسك التركيبي والتوافق الدلالي، اللذان اتسمت بهما هذه السورة ابتداءً من عنوانها.

3- ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾: هنا عاد التركيب الذي انمازت به الآيات الثلاث في جواب القَسَم؛ إذ جاءت المؤكدات من جديد، لتتألّف منها الخاتمة، إذ قال تعالى على الاستئناف: (إنَّ ربهم بهم)[77]، ثم إنّ الضمير المتصل بالحرف الناسخ وبالباء في هذه الآية لم يعد ضميراً للمفرد الغائب كما كان في آيتين سابقتين، إنما جاء الضمير

هنا للجمع؛ ليعدِل عن المفرد، ويتسع حتى يشمل الجميع، والعدول بالضمير من المفرد إلى الجمع بهذا المعنى شائع في لغة العرب؛ لأنّ الإنسان هنا اسم للجنس[78]؛ ولذلك فإنّ "الضمير في (ربهم)، و(بهم) يعود على الإنسان؛ لأنه يراد به الجنس"[79]. والمعنى: "إنّ ربَّ المبعوثين بهم لخبير، لا تخفى عليه منهم خافية، فيجازيهم بالخير خيراً، وبالشر شرّاً"[80]. وعلى نحو ذلك قال الطبري: "يقول إنَّ ربهم بأعمالهم، وما أسرّوا في صدورهم، وأضمروه فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليمٌ، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ"[81].

أما من الناحية التركيبية، فيحتمل في جملة (إنَّ ربَّهم) وجهان؛ «أحدهما: أنّ هذه الجملة معمول (أفلا يعلم) فكان الأصل أن تفتح (إنّ)، ولكنها كسرت من أجل اللام التي في خبرها، والثاني: أنْ تكون هذه الجملة مستأنفة، ويكون معمول (أفلا يعلم) محذوفاً، ويكون الفاعل ضميراً يعود على الإنسان، والتقدير: أفلا يعلمُ الإنسانُ حالَهُ وما يكونُ منه إذا بُعثِر ما في القبور"[82].

وإذا ما نظرنا إلى جميع المشاهد التي سبقت في هذه السورة وارتباطها بالعنوان الذي كوَّن الصورة الأيقونية لنصها، وحدد البؤرة المركزية لمعانيها، وجدنا أنّ "مطلعها يتسم بقصر الفواصل، وشدة التعبير التي تناسب صورة الخيل والمعمعة والعجاج، أما في قسمها الثاني، عندما عمدت إلى التعبير عن جحود الإنسان وحبه للمال، فإن التعبير هدأ وطَال؛ ليناسب المقام ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾، ثم رجع ليلائم مشهد القيامة والحساب. كما نلاحظ أن الأفعال بجرسها، ترسم مشهد القيامة وعنفوانه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾، فالفعلان: (بعثر) يعبر عن عنف القيامة وشدة الأمر، و(حصّل) يعبر عن التحصيل بشدة، ومن هنا نلاحظ الدقة في استخدام الفعل ليعبر عن المعنى المطلوب بدقة متناهية"[83].

الشخصيّات في سورة العاديات

يحمل الخطاب في سورة العاديات ثلاث شخصيات محورية، تتمثل فيما يأتي:

1- **العاديات (الخيل)**: بما فيها من صفات مذكورة في نص السورة: (العاديات،الموريات،

المغيرات، فأثرن، فوَسطن). و(العاديات) هنا شخصية ذات بُعد سيميائي رفيع؛ فهي تحمل اسم السورة (العنوان)، وهي أيضاً تُكوِّن الـمُقسَم به، كما يتجلى ذلك في استهلال النص، ثم تتحوّل إلى أحوال متغايرة، وهي كذلك الشخصية الوحيدة التي لا تعقِل في السورة، وفي السيمياء بحسب مقاربة (كريماص) "يُنظَر إلى الشخصية منظوراً نحويّاً سيميائيّاً، فقد تكون الشخصية عنده شخصاً، أو شيئاً، أو حيواناً، أو مكاناً، أو فكرة مجرّدة"(84)؛ ولذلك فهي تمثِّل البؤرة والأيقونة اللازمتين في نص السورة.

2- **الإنسان**: بما فيه من صفات مذكورة في نص السورة أيضاً: (كَنود لربه، شاهد على ذلك، شديد الحب للمال). كما يشمل الإنسان الحيّ في حال اتصافه بهذه الصفات، والإنسان الميت الذي يُبعَث، ثم يُكشَف ما أسرّ وفعل.

3- **الربّ**: بما اتصف به – جلَّ ذكرهُ – من صفات العظمة: (الربّ المدبّر، الباعث، الوارث، الخبير بالإنسان).

كما أنّ هناك شخصيّتين خفيّتين، تُفهَمان من خلال سياق النص، وتتعالقان مع شخصياته المذكورة، وهاتان الشخصيّتان هما:

1- **الفرسان**: الذين يقودون الخيل في ساحة المعركة، وتمثل هذه الشخصية الخفية شخصية (ربّ الخيل)؛ أي سيدها ومالكها، إذ لفظ (الرب) يأتي بمعنى السيد في الدنيا، كما قال تعالى على لسان يوسف – عليه السلام –: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(85)؛ أي: إنه سيدي، يعني زوج المرأة(86)؛ والفارس كذلك هو ربُّ الخيل، الذي يملكها ويُعنَى بها في الدنيا، ويعرف كيف يستخدمها ويفيد منها، وهؤلاء الفرسان يمثلون المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله.

2- **الأعداء**: الذين يُغار عليهم بالخيل، ويكون مآلهم الهزيمة والنكال والخسران، وهم الذين غفلوا عن مباغتة المؤمنين؛ فحلّ بهم ما حلّ من القتل والعذاب، وفقدان الأهل والأصحاب، وتمثل هذه الشخصية الخفية شخصية الإنسان المذكور في الآيات، والموسوم بالجحود والنكران والغفلة.

ويكشف التحليل النصي للشخصيات السابقة مجموعة من التناقضات التي بُنِيت عليها معاني السورة؛ إذ إنّ النص في سورة العاديات يسير في رصد التباين بين موقف كلٍّ من (العاديات)، و(الإنسان)، تجاه (ربهما).

ويبدو أنّ ذلك التباين بين الشخصيات في هذه السورة قد أدّى دوراً تفسيرياً كبيراً، وحقَّقَ التماسك والتوافق في نصّها أيّما تحقيق، كما أنّ سيميائية السورة، المفعمة بالشخصيات الحيوية المتناقضة، وعنوانها الذي يعود إلى نصِّها المترابط بالقسَم وجوابه، المتباينين تركيباً ودلالة، قد كشف معانيها الخفيّة، واستخرج مقاصد الخطاب فيها، "فعبر التعارض والاختلاف والتناقض والتضاد بين الدوال اللغوية النصية، يكتشف المعنى، وتستخرج الدلالة. ومن ثم، فالهدف من دراسة النصوص سيميوطيقياً وتطبيقياً هو البحث عن المعنى والدلالة، واستخلاص البنية المولدة للنصوص منطقيا ودلاليا"[87].

ومن هنا يلاحظ من خلال دراسة الشخصيّات والفضاءات في هذه السورة ما يأتي:

1- التحوُّل في حال الـمُقسَم به (العاديات)؛ إذ بدأ حالها في العَدو، فإيراء الشرر، فالإغارة في الصباح، فإثارة الغبار، فتوسّط الجمع، وقد سمِّيت السورة باسمها الذي يدلّ على حالها الأول، على اعتبار ما سيكون من أحوال معروفة، من جراء معرفة تلك الحال الأولى. ويبدو أنّ هذا التحول الذي وقع في حال الخيل يُنبِئ عن أنّ المقصدية في هذه السورة ستحقِّقها منذ البداية التحوُّلات والتناقضات بين أحداثها وشخصياتها، وكأنها دعوة إلى تأمُّل القارئ النابه إلى ذلك. ولذلك قال السيميائيون: إنه "ينبني مدلول الشخصية في الحقيقة بفعل التكرار، والتراكم، والتحوُّل، وبفعل التعارض مع أشخاص آخرين"[88].

2- ظهور شخصية (الإنسان) في جواب القسَم على غير الوجه الذي ظهرت فيه (العاديات) في القَسَم؛ فالإنسان هنا جَحود لربّه، شاهد على ذلك، شديد الطمع والبخل، أما (العاديات) فكانت وفيّة لربِّها الذي قادها إلى ساحة القتال؛ حيث كان يطعمها ويعتني بها، فهي من أجل ذلك الإكرام لم تُعاند أو تتكبر على ما فيها من صفات الجَمال والقوة والانتظام، بل رمت بنفسها إلى الموت، وقامت بقذف الرهبة

في صفوف العدو؛ من أجل ذلك (الربّ)، ثم إنها لم تطمع بغنيمة أو عطيّة لوفائها. ويبدو أنّ هذا التضاد الواقع بين الشخصيتين فيه مقصدية لتنبيه الإنسان على ما يجب عليه أن يكون من الطاعة والامتثال والكمال، التي اتصف بها ذلك الحيوان الذي لا يعقل تجاه صاحبه، فحيث "إنه -سبحانه- ذكر في هذه السورة رداءة ما عليه جبلّة الإنسان، من قلة الشكر والصبر، والحرص على المال، بحيث يكاد يشغله عن تحصيل الكمال الحقيقي، وعن المعاد الذي إليه مآل حال العباد، فأقسم على ذلك بالأمور التي هي مركوزة في خزانة خيالهم، ولا تكاد تخلو في الأغلب عن الخطور ببالهم"(89).

وهنا إشارة أيضاً إلى أنّ الذي سخّر هذا الحيوانَ نفسَه لصاحبه هو الربُّ الأعظم سبحانه، ولذلك كان القَسَم نقيض جواب القَسَم؛ لإثارة التنبيه على كل تلك المعاني والمقاصد. وفي هذا قال الإمام فخر الدين الرازي (ت604هـ): "فوجه القَسَم به من وجوه... فكأنه - تعالى - يقول: إني سخّرت مثل هذا لك، وأنت متمرِّد عن طاعتي"(90).

واللافت للنظر في شخصيتَي (العاديات) و(الإنسان) أنّ الأول غير عاقل، والثاني عاقل، إلا أنّ السلوك الذي قام به كلٌّ منهما في النص يُنبئ عن سلوك مضادّ لما يفترض أن يكونا عليه، فالأول اتخذ مسلك المعقول في تصرفاته، والثاني اتخذ مسلك اللامعقول؛ حيث فعل ما لا يفعله العاقل المبصر.

3- التضاد الواقع بين شخصيتَي (العاديات) و(الإنسان) يمثِّل في السيمياء ما يسمّى بالبطل والبطل المضاد؛ حيث يتعاطف قارئ النص مع البطل، ويرغب في الاتصاف بصفاته الإيجابية؛ وذلك أنّ البطل قد فعل ما يستحق تلك الرغبة، فهو في أي نص قد يمر بتحوّلات وصعوبات تواجهه فيتخطاها بنجاح، وفي النقيض يبغض القارئُ البطلَ المضادَّ، بما فيه من صفات شائنة؛ "فالبطل هو الذي يحصُل على موضوعه المرغوب فيه، عبر مجموعة من الوضعيات الصعبة، ومن هنا يستحق تمجيد المرسِل، بعد إنجازه لكلِّ توصيات المحفِّز الآمر وتعليماته، أمّا البطل المضاد أو المعاكس، فهو بطل خائن وشرِّير، يعاكس توجهات البطل الإيجابي... وتمتاز هذه الشخصية

الخارقة بمقياس تفاضلي زائد؛ حيث يتعاطف معه القارئ أو المتلقّي الذي يشترك معه في مجموعة من القيم والأفكار والإيديولوجيات؛ لأن البطل يمتلك مؤهلات قوية ونادرة جداً، تؤهِّله للوصول إلى الموضوع (القيمة)؛ ولذلك ينجح في اجتياز اختبارات عدة بكل نجاح، سواء أكان اختباراً تأهيلياً، أم إنجازيّاً، أم تقويميّاً"[91].

ومن خلال ذلك، يبدو أنّ رصد الشخصيات المتناقضة في هذه السورة مبدأ أساسي في تحليلها النصي؛ حيث يظهر المحور التقابلي أو الاستبدالي في نص السورة على صورة الشخصيات المضادة، كما تتضح فكرة التفكيك والتركيب التي تتبنّاها السيميائية في تحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية صوتياً ونحوياً وصرفياً ودلالياً، ورصد الأسس الجوهرية المنطقية التي تكون وراء سبب اختلاف النصوص والجمل والملفوظات، وفي هذا المعنى قال الدكتور جميل حمداوي: "يقوم التحليل السردي على مبدأين أساسيين، هما: مبدأ التقابل أو التضاد المبني على المحور الاستبدالي، أو البراغماتي (محور التعويض والانتقاء)، ومبدأ التعاقب أو التتابع أو التسلسل القائم على المحور التركيبي (الترابط المنطقي)"[92]. وقال في موضع آخر: "فعملية التصنيف مهمة في التحليل البنيوي للتمييز بين المختلف والمتشابه؛ إذ تنتج الدلالة، ويتضح المعنى، عبر الاختلاف والتضاد"[93].

ويتبين ذلك في سورة (العاديات) من خلال تقابل شخصيّتي (العاديات)، و(الإنسان)، ويمكن بيان ذلك في الجدول الآتي:

العاديات	الإنسان
القوة في الإغارة	ضعف الإيمان
سلامة الصدر	مرض القلب
الوفاء لصاحبها	الجحود والنكران
الحيوية والنشاط	موت القلب والركون إلى الراحة
الانتظام في العَدْو	التخبُّط العَقَدي
الجَمال	قُبْح المعصية

4 - هناك عناصر ضمنية يمكن أن تستنتج من خلال الفضاءات الواقعة في النص، فمن حيث الفضاء المكاني كانت العاديات في فضاء ساحة القتال، ويمثّل ساحة العمل بالنسبة للإنسان، وهذه الساحة هي الدنيا التي هي دار العمل، وكل ما فيها ينقضي، كما انقضى القتال في ساحة المعركة، وبقيت النتيجة، فإما النصر والغنيمة، وإما الخسران والهزيمة. وأما من حيث الفضاء الزماني، فهو ملازِم للفضاء المكاني السابق؛ فالزمان في ساحة المعركة يبدأ بالصباح الباكر، وذلك بدءاً بالعَدْوِ في اتجاه العَدُوّ، وينتهي بالنصر أو الهزيمة، الذي عادةً ما يكون عند انقضاء النهار، مروراً بما يعترض ذلك من إيراء الشرر من الحوافر، والإغارة، وإثارة الغبار، وتوسط الجمع، وكل هذا تحوّل من فضاء إلى فضاء آخر، حيث الدنيا لا تدوم، وكل شيء سينتهي، ولذلك ذكر – سبحانه – في آخر السورة تحوّل الزمان بقوله: (يومئذٍ)؛ أي يومَ إذ بُعثر ما في القبور، وحصِّل ما في الصدور، وقُضِيَ الأمر، وفي ذلك إشارة إلى الحث على السعي لما ينفع، والمبادرة إلى العمل، قبل انقضَاء ذلك الأمر، وتحوّل الفضاءين المكاني والزماني إلى فضاءين آخرين لا ينفع فيهما الندم.

5 - تضافر التحوّلات الواقعة في الشخصيات والفضاءات بناءً على السياقات الواردة في السورة، يحقّق دلالات واسعة وعميقة يحتويها النص، ومن هنا نُدرِك أنّ التفسيرات المعجمية لشخصيات السورة وفضاءاتها لم تكن كافية لتأويل النص كما تبيَّن؛ إذ إنّ التأويل النصّي اليوم يتطلّب دراسة الألفاظ ضمن السياقات التي تكون فيها؛ والبحث عن العلاقات التي تجمع بينها؛ وذلك حتى تتضح دلالاتها العميقة، وتُعرَف معانيها الدقيقة. وفي هذا المعنى يقول الدكتور عبدالحميد بورايو: "يتحدد الحقل الدلالي بدراسة الكلمات في سياقاتها النصية والخطابية، بعيداً عن التفسيرات المعجمية والقاموسية. بمعنى أن دلالات الكلمات تستكشف داخل سياقاتها النصية والذهنية والتأويلية والثقافية. وبتعبير آخر، فبعد الانتهاء من تصنيف مجموع المفردات المستعملة وفق مقولات دلالية متسعة (حقول معجمية)، تضم كل منها مجموعة من المفردات والعبارات، ننتقل إلى الملفوظات السياقية الخاصة التي تشكل الحقل الدلالي (معجم المعاني). وبطبيعة الحال، يستند الحقل الدلالي، مثل الحقل المعجمي، إلى مجموعة من العلاقات كالتضاد والاختلاف والترادف..." [(94)].

6- التفسيرات السابقة للشخصيات والفضاءات الكائنة في السورة تسير تداوليّاً على المنهج الترميزي القائم على المعرفة المشتركة بين الملقي والمتلقّي الذي يُفضي إلى المنهج الاستنتاجي؛ وذلك أنّ "المقاربة الترميزية تقوم على ضمان النموذج الترميزي لنجاح الاتصال، حيث تكون المعرفة المشتركة شرطاً للوصول إلى المعنى الصريح أو بداية للتفسير. كما أنّ المقاربة الاستنتاجية، أو الاستدلالية، كما يسميها (غرايس)، وهي المرحلة التابعة للمقاربة الترميزية؛ إذ تحدث بواسطة مؤشرات (Indices) يقدمها القائل؛ حتى يستطيع المستمع الاستدلال بها على مقاصد الأول، انطلاقاً من مجموع المقدمات التي تجعل العملية الاستدلالية تتسع؛ لتشمل كل الإمكانيات التي يوفرها القول بدلالة كلماته، وطريقة تركيبها، وأبعادها، وإيحاءاتها، وما تحركه، وما تثيره من رغبات ونوازع وتطلعات وتوقعات متفاعلة مع الإمكانات التي تكونها، وتشحطها العناصر الحاضرة، أو المبنية في المحيط المعرفي في المؤوَّل"[95]. وفي هذا الإطار يرى (غرايس) في مقاربته الاستدلالية "أنّ المعنى المتواضَع عليه يتطور انطلاقاً من استدلال طبيعي؛ إذ هناك مستوى الخبر الذي يمكن أن يتعلق بشيء، وهناك مستوى ثانٍ، مكوّن عن الخبر، يمكن الوصول إليه عن طريق عمليات استدلالية، بواسطة طرق منطقية تداولية، تسمح باكتشاف المعاني الضمنية التداولية، وتقوم هذه المقاربة الاستدلالية على ثلاث أفكار، هي:

أ - أنّ المعنى المراد من القول هو في الغالب ضمني (Implicite).

ب - أنّ الوصول إلى المعنى المراد يتم عن طريق حساب استدلالي تثيره عوامل تداولية مبنية على مبدأ التعاون وقواعد الحوار التي وضعها (غرايس) وقواعد أخرى مرتبطة بالجانب المعرفي والسياقي.

جـ - أنّ المعلومات السياقية ضرورية من أجل حساب ما هو ضمني[96].

وبهذا يتضح أنّ المعنى الضمني- كما هو عند (غرايس) - لا يقتضي الإشارة اللسانية فحسب، "بل هو معنى أكثر خفاءً، لا يؤول إلا بحسب معطيات الخلفيات المشتركة، والسياق الذي قيل فيه القول، وهو بذلك الغاية من القول، والحكمة منه، يتم التوصل إليه عن طريق عمليات استدلالية تداولية، بفعل تشغيل عدة معلومات مرتبطة بالذات ومصلحتها"[97].

7- تأدية وسائل الاتساق النصي وظائفها الكاملة في تماسك النص في السورة، وتشكيل دلالاتها السياقية، وذلك من خلال العناصر الآتية:

أ- الربط النصي بين الألفاظ التي جاءت في الاستهلال بحرف الفاء، الذي يفيد الترتيب والتعقيب مباشرةً دون تراخٍ؛ ليدل على سرعة التحوّلات الواقعة في أحوال الخيل، بما يوحي بسرعة الحياة وانتقالها من حال إلى حال، ثم مجيء يوم الحساب بغتةً.

ب- الربط الرصفي بين الجمل والعبارات بالقَسَم وجوابه، وتأكيد حقيقة الجَواب بالاستفهام الإنكاري، ثم تأكيد تلك الحقيقة التي يحملها بالخاتمة الخبرية؛ وما في ذلك من ترابط تركيبي بين العبارات، وتسلسل دلالي في الأحداث.

جـ- التضاد الذي هو أحد عناصر التضام النصي، وقد تحقق ذلك في المعطيات الاستدلالية التي جاءت بها السورة؛ إذ المعاني الإيجابية في القَسَم، تناقضها المعاني السلبية في جوابه، وكذلك بين شخصيّتي (العاديات)، و(الإنسان). ويمكن أن يُعدَّ هذا التضاد الواقع في الآيات من قبيل التضاد الحاد أو غير المتدرّج، الذي يعدّه المناطقة قريباً من النقيض، ويتفق مع قولهم: إنّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، أو إنهما لا يمكن أن يصدقا معاً، أو يكذبا معاً، ولذلك فإنّ شعور المتكلِّمين- كما يرى (جون لوينز) - يتجه إلى اعتبار أحد المتقابلين في التضاد ذا معنى إيجابي، والآخر ذا معنى سلبي[98]، "ولهذا تصنع مثل هذه العلاقات تماسكاً نصّياً بدلالاتها المتناقضة على مبدأ: والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ"[99].

د - الإحالة المقامية القائمة في قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، وفي قوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ إذ يحيل الضمير إلى العنوان، إما إلى مصدره، وإما إلى مكان سيره؛ حيث اللفظ المحال إليه غير مذكور في النص، ولكن مستفاد منه، وكذلك الإحالة القبلية الداخلية في الوجه الذي يرجع فيه الضمير إلى (النقع).

هـ - الاستبدال القولي، وذلك عند مجيء اسم الإشارة (ذلك) في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾؛ ليحل محل لفظ (الكُنود)، حيث أدّى هذا الاستبدال وظيفة التماسك النصي.

و - الترتيب الزمني المتوافق مع الوقائع والأحداث، وهو من عناصر التوافق المهمة في نحو النص[100]، وذلك في مشهد الإغارة، بدءاً بالعَدْو، مروراً بإيراء الشرر من الحوافر، وإثارة الغبار، وانتهاءً بتوسط الجمع في ساحة القتال، وكذلك في مشهد القيامة، حيث يُبعثر ما في القبور، ثم يُحصَّل ما في الصدور، ثم يكون الحساب والجزاء.

ز- قوة درجة الإعلاميّة في وضوح المعلومات ودقتها، وارتباطها بالعنوان والقَسَم والخاتمة، ومجيء النص متوافر الأحداث والشخصيات والفضاءات التي تهم المتلقّي، ويتحقق بها هدف التواصل النصّي.

ح - المقاميّة المناسبة لموضوع السورة وتوافق أولها مع آخرها دلاليّاً، وذلك في مجيء القَسَم في الاستهلال بمشهد الإغارة بالخيل، وما في ذلك من قذفٍ للرعب في صفوف العَدُوّ، فيه إيحاء بالتهديد والوعيد؛ لأن الخيل (المُغيرات) عند العرب رمز للتهديد والوعيد، كما في الحديث: "أَرَأَيْتَكمْ لو أَخْبَرْتكُمْ أنَّ خَيلًا تَخْرجُ بسَفْحِ هذا الجَبَلِ، أَكنْتُمْ مصَدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جَرَّبنَا عَلَيكَ كَذبًا، قال: فَإنِّي نَذيرٌ لَكمْ بين يدَيْ عذَابٍ شَديدٍ"[101]، وهذا التهديد يتناسب مع السياق النصّي للسورة في مخاطبة الإنسان الجاحد في جواب القَسَم؛ لأن الجاحد يستوجب التهديد والوعيد، فأتى القَسَم بمعانٍ تتناسب مع هذا المقام.

ومن هنا يتحقق معيار المقاميّة هذا؛ وذلك أنّ المقاميّة تهتم بظروف إنتاج النص، وحالة عناصر العملية اللغوية، وكلّ ما يمكن أن يكون له علاقة بالمعنى؛ حيث يطبّق ما قالته العرب سابقاً: لكلّ مقامٍ مَقال[102].

ط - التكرار الجراماتيكي، المتمثل في تكرار نظم الجمل بكيفية واحدة، وبنية متشابهة، بدأت من الاستهلال بقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾، وذلك بذكر لفظين في كل جملة؛ الأول منهما اسم فاعل مجرور، والثاني اسم ثلاثي ساكن الوسط منصوب، ثم يتبع ذلك قوله: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾، وهما جملتان في كلٍّ منهما فعل مقترن بنون النسوة،

يليه جار ومجرور، وبعده مصدر منصوب، ثم يتوالى ذلك التكرار بين المقاطع إلى آخر السورة.

ي- التكرار الصوتي الواقع في الفواصل، حيث كلٌّ مشهَد له خصائص صوتية خاصة به في الفاصلة، إضافةً إلى ما فيه من تكرار جراماتيكي تركيبي خاص، ويلاحظ ذلك من خلال الجدول الآتي:

المشهد	الألفاظ الواقعة في الفواصل	الصوت المكرر
وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾	ضَبْحًا، قَدْحًا، صُبْحًا	حاء مفتوحة مسبوقة بحرف صحيح ساكن
فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾	نَقْعًا، جَمْعًا	عَيْن مفتوحة مسبوقة بحرف صحيح ساكن
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾	لَكَنُود، لَشَهِيد، لَشَدِيد	دال ساكنة عند السَّكت، مردوفة بواو أو ياء
أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾	الْقُبُور، الصُّدُور، لَخَبِير	راء ساكنة عند السَّكت، مردوفة بواو أو ياء

وهكذا تتضح شمولية سورة (العاديات)- نحويّاً، من خلال تركيبها والقَسَم الكائن فيها، ودلالياً، من خلال أحداثها وشخصيّاتها، وتضافر أجزائها- في تأدية مقصدها، وعودة جميع معانيها التي تتمخض في ذهن المتلقّي- من خلال علاقة التضاد بين شخصياتها- إلى عنوانها الذي يمثِّل الأيقونة السيميائية، والبؤرة المركزية. ونجد هذه النظرة الشمولية في تفسير السورة ومعرفة مقصدها متمثلةً عند الغرناطي في أول كلامه في تفسير السورة،

وكذلك في آخره، فأما في أول الكلام، فقال: إنّ "سورة (العاديات) مقصودها الإعلام بأنّ أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك؛ لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال، المدلول عليه بالقَسَم، وهو (والعاديات)، الـمُقسَم عليه، وما عطف عليه، وقد عُلِم أنّ اسمها أدلُّ شيء على ذلك؛ لما هدى إليه القَسَم الـمُقسَم عليه"[103]. وأمّا في نهاية الكلام، فقال: إنّ "الإنسان يعمل أشياء كثيرة، وهو غافل عن أنّ ربه- سبحانه - مطلع عليه فيها، ولو نُبِّه لَعلِم؛ فلإحاطته - سبحانه - وتعالى بجميع أحوالهم كان عالماً بأنّ الإنسان لربه لَكنود، وقد رجع آخرها إلى أولها، وتَكفَّل مفصلها بشرح مجملها"[104].

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة التي تناولت العنوان ووظائفه وقيمته، وعلاقته بالنص القرآني، التي اتخذت سورة العاديات نموذجاً في ذلك، ودرست العلاقة بين عنوانها ونصّها، وأثر البدء بالقسَم في تحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية صوتياً ونحوياً وصرفياً ودلالياً، يمكن الخروج بما يأتي:

1- الاشتغال بالمناهج اللغوية الحداثية في تأويل القرآن الكريم يظهر معارف تأويلية خفية، وينتج تفسيرات جديدة لم تكن في إطار تناول المفسرين من قبل.

2- العناوين الداخلية للخطاب القرآني، الممثلة في العناوين المختلفة للسّوَر القرآنية، لا تحيد عن مدلولات العنوان الفوقيّ للخطاب القرآني الكامل.

3- تحديد الرؤية في النص يتوقف على تحليله من العنوان إلى آخر جزء منه، مأخوذاً بعين الاعتبار في ذلك التحليل جميع العناصر التي تشكّل النص، من مثل الشخصيات، والأحداث، والفضاءات، والوصف، والحوار، وتعدد المستويات الأسلوبية، والنحوية، والصرفية، واللسانية، والمعجمية.

4- المقاميّة العالية للسور القرآنية المبدوءة بالقسَم؛ لكونها سوراً مكيّة؛ إذ يتناسب البدء بالقسَم فيها مع المقام الذي نزلت فيه، وهو مقام التكذيب، فجاء القَسَم في الاستهلال؛ ليؤكّد الخبر، ويقوّي الحجّة.

5- عنوان سورة (العاديات) يحمل صورة أيقونيّة ذات معرفة أوليّة مسبقة في ذهن الرجل العربي، تتمثل في مشهد الخيل وسط ساحة القتال، وهي صورة مؤثرة تستلزم استحضار الأيقونة الإيجابية للخيل، والرامزة للقوة والفروسية والنصر والمكانة الاجتماعية.

6- وفقاً لما تتطلبه الدراسة النصّية للقرآن الكريم إلى توجيه الدلالة إلى التأويل الأَوْلى من بين التأويلات المتعدِّدة التي تقوم على المعطيات النصّية والسياقات المعرفية، يحتِّم أنْ يكون المقصود بـ(العاديات) في سورة العاديات الخيل لا الإبل.

7- التباين النصّي بين الشخصيات في سورة العاديات يكشف مجموعة من التناقضات التي بُنِيت عليها معاني السورة؛ بما يسهم في التأويل النصّي المتجدد، واستخراج مقاصد الخطاب في السورة، وتحقيق التماسك والتوافق.

8- الشمولية النصية في سورة (العاديات) ذات طابعين؛ نحوي ودلالي، إذ تكمن شموليتها نحوياً في التفرعات التركيبية الواقعة في القَسَم الكائن فيها، وتكمن شموليتها دلالياً في أحداثها وشخصيّاتها، وتضافر أجزائها- في تأدية مقصدها، وعودة جميع معانيها إلى عنوانها.

الهوامش والمراجع

(1) **مَوّل هذا العمل جامعة الكويت، مشروع بحث رقم** [AA02/16]، **ومن جهتي أشكر جامعة الكويت على دعم البحث وتمويله.**

(2) برهومة، عيسى عودة: "سيمياء العنوان في الدرس اللغوي"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت: العدد 97، السنة 25، 2007م، ص1 – 25.

(3) محمود، هلال علي: "سورة العاديات: دراسة مقطعية"، **مجلة آداب الرافدين**، جامعة الموصل: العدد 54، 2009م، ص75 – 100.

(4) محجازي، فاتن: "سورة المرسلات: دراسة في لسانيات النص"، **مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية**، كلية الآداب بجامعة المنوفية: العدد 39، 2010م، ص177 – 222.

(5) الحموز، عبدالفتاح: "سيميائية العنوان في السور القرآنية ذوات البؤرة الاستفهامية ونظرية نحو النص"، **مجلة كلية دار العلوم**، جامعة القاهرة: العدد 72، فبراير 2014م، ص51 – 103.

(6) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي: **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق:

عبد الحميد هنداوي، ج2، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، ص367، مادة (عنو)، وانظر: ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري: **لسان العرب**، ج15، ط1، بيروت: دار صادر، د.ت، ص106، مادة (عنا).

(7) "عتبات النص مقاربة سيميائية"، ص105.

(8) بلعابد، عبدالحق: **عتبات (ج.جينيت من النص إلى المناص)**، تقديم: سعيد يقطين، ط1، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008م، ص74.

(9) حمداوي، جميل: **الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية**، منشورات شبكة الألوكة الإلكترونية، 2015م، ص28.

(10) "عتبات النص مقاربة سيميائية"، ص107.

(11) عتبات (ج.جينيت من النص إلى المناص)، ص74، 75.

(12) صباحي، حميدة: "العنوان وتفاعل القارئ: قراءة تأويلية في شعر عبدالله العشي"، **مجلة قراءات**، جامعة بسكرة- الجزائر: العدد 5، 2013م، ص247.

(13) حسين، خالد حسين: "سيمياء العنوان القوة والدلالة (النمور في اليوم العاشر لزكريا تامر نموذجاً)"، **مجلة جامعة دمشق**، جامعة دمشق: المجلد 21، العدد 3، 2005م، ص350.

(14) ريفاتير، مايكل: **دلائليات الشعر**، ترجمة ودراسة: محمد معتصم، ط1، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة محمد الخامس، 1997م، ص7.

(15) يحياوي، رشيد: **الشعر العربي الحديث دراسة في المنجز النصي**، ط1، الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق، 1998م، ص113.

(16) الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص266، 267.

(17) الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص266.

(18) "سورة المرسلات: دراسة في لسانيات النص"، ص179.

(19) بن الدين، بخولة: "عتبات النص: مقاربة سيميائية"، **مجلة سمات**، جامعة البحرين: العدد 1، مايو 2013م، ص105.

(20) عتبات (ج.جينيت من النص إلى المناص)، ص65.

(21) مفتاح، محمد: **دينامية النص**، بيروت: المركز الثقافي العربي،1990م، ص72.

(22) رضا، عامر: "سيمياء العنوان في شعر هدى ميقاتي"، **مجلة الواحات في البحوث والدراسات**، جامعة غرداية: المجلد 7، العدد 2، 2014م، ص124.

(23) "سيمياء العنوان في شعر هدى ميقاتي"، ص125.

(24) "عتبات النص: مقاربة سيميائية"، ص105.

(25) "سيمياء العنوان في شعر هدى ميقاتي"، ص124.

(26) "عتبات النص: مقاربة سيميائية"، ص107.

(27) عتبات (ج.جينيت من النص إلى المناص)، ص71.

(28) "عتبات النص: مقاربة سيميائية"، ص105.

(29) المحكم والمحيط الأعظم، ص367.

(30) "سيمياء العنوان: القوة والدلالة (النمور في اليوم العاشر لزكريا تامر نموذجاً)"، ص355، 356.

(31) "سيمياء العنوان: القوة والدلالة (النمور في اليوم العاشر لزكريا تامر نموذجاً)"، ص360.

(32) الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله: **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، ج3، ط1، بيروت: دار المعرفة، 1391هـ، ص40.

(33) البغدادي، عبد القادر بن عمر البغدادي: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع يعقوب، ج10، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م، ص54.

(34) بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن: "من أسرار العربية في البيان القرآني"، **مجلة اللسان العربي**، جامعة الدول العربية بالرباط: المجلد 8، العدد 1، يناير 1971م، ص34.

(35) "سيمياء العنوان في الدرس اللغوي"، ص162.

(36) انظر: الصنعاني، عبد الرزاق بن همام: **تفسير الصنعاني**، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، ج3، ط1، الرياض: مكتبة الرشد، 1410هـ، ص390، و: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج30، بيروت: دار الفكر، 1405هـ، ص280.

(37) الخولي، ختام عثمان: "أيقونة الخيول في نص أمل دنقل (الخيول)"، **مجلة دراسات**، الجامعة الأردنية: المجلد 40، العدد 3، 2013م، ص662.

(38) الأنفال: 60.

(39) الشيباني، أبو عبدالله أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ج2، القاهرة: مؤسسة قرطبة، ص57، رقم الحديث 5200، و: البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل: **الجامع الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ج3، ط3، بيروت: دار ابن كثير1987م، ص1047، رقم الحديث 2694.

(40) "أيقونة الخيول في نص أمل دنقل (الخيول)"، ص662.

(41) العاديات: 1-5.

(42) الرازي، فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر: **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، ج32، ط1، بيروت: دار الفكر، 1981م، ص63.

(43) البقاعي، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج22، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1984م، ص211.

(44) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص211.

(45) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ص63.

(46) صافي، محمود: **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**، ج30، ط4، دمشق: دار الرشيد، 1998م، ص391.

(47) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص212.

(48) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، ص391.

(49) الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف: **البحر المحيط**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و:الشيخ علي محمد معوض، ج8، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م، ص105.

(50) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص212 – 213.

(51) النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل: **إعراب القرآن**، تحقيق: د.زهير غازي زاهد، ج5، ط3، بيروت: عالم الكتب، 1988م، ص278.

(52) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: **تفسير البغوي**، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، ج4، بيروت: دار المعرفة، ص518.

(53) عفيفي، أحمد: **نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي**، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 2001م، ص121.

(54) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص213.

(55) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص117.

(56) العاديات: 6 - 8.

(57) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص214.

(58) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص124.

(59) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ص67.

(60) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص278 – 279.

(61) مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي: **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: أحمد فريد، ج3، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م، ص511، و: الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء: **معاني القرآن للفراء**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، ج3، ط1، القاهرة: دار السرور، 1955م، ص285.

(62) سورة ص: 32.

(63) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج23، بيروت: دار الفكر، 1405هـ، ص154.

(64) معاني القرآن للفراء، ص285.

(65) التيمي، أبو عبيدة مَعمر بن المثنى: **مجاز القرآن**، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ج2، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1954م، ص308.

(66) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني: **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، ج1، ط5، القاهرة: دار المعارف، 1997م، ص96.

(67) حجازي، محمود فهمي: **علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة**، القاهرة: دار غريب، 1995م، ص46.

(68) الدرويش، محيي الدين: **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، ج8، ط6، دمشق وبيروت: دار اليمامة ودار ابن كثير، 1999م، ص390.

(69) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج30، بيروت: دار الفكر، 1405هـ، ص279.

(70) "سورة العاديات: دراسة مقطعية"، ص82.

(71) العاديات: 1-9.

(72) إعراب القرآن الكريم وبيانه، ص389.

(73) الغرناطي، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي: **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج4، ط4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1983م، ص214.

(74) القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب: **الهداية الى بلوغ النهاية**، تحقيق وإشراف: أ.د. الشاهد البوشيخي، ج12، ط1، الإمارات العربية المتحدة: جامعة الشارقة، 2008م، ص8407.

(75) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص215.

(76) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص280.

(77) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: **تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات**، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، ج3، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، ص443.

(78) الواحدي، علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن: **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ج2، ط1، دمشق وبيروت: دار القلم والدار الشامية، 1415هـ، ص1226.

(79) التسهيل لعلوم التنزيل، ص214.

(80) **الشوكاني**، محمد بن علي بن محمد: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، ج5، بيروت: دار الفكر، د.ت، ص483.

(81) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ص280.

(82) التسهيل لعلوم التنزيل، ص214.

(83) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، ص391.

(84) الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص69.

(85) يوسف: 23.

(86) مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي: **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: أحمد فريد، ج2، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م، ص145.

(87) الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص45.

(88) مرسلي، دليلة وأخريات: **مدخل إلى التحليل البنيوي للنصوص**، ط1، بيروت: دار الحداثة، 1985م، ص102. نقلاً عن: الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص68.

(89) النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري: **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق: الشيخ زكريا عميران، ج6، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1996م، ص549.

(90) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ص63.

(91) الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص71.

(92) الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص91.

(93) الاتجاهات السيميوطيقية: التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية، ص300.

(94) بورايو، عبد الحميد: **التحليل السيميائي للخطاب السردي**، ط1، الجزائر: دار الغرب، 2003م، ص85.

(95) مدقن، هاجر: "المقاربة التداولية: المصطلح والمنهج"، **مجلة مقاليد**، جامعة قاصدي مرباح: العدد 2، ديسمبر 2011م، ص14.

(96) "المقاربة التداولية المصطلح والمنهج"، ص14.

(97) "المقاربة التداولية المصطلح والمنهج"، ص14.

(98) عمر، أحمد مختار: **علم الدلالة**، ط5، القاهرة: عالم الكتب، 1998م، ص102 - 105.

(99) نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، ص114.

(100) "سورة المرسلات: دراسة في لسانيات النص"، ص203.

(101) البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل: **الجامع الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ج4، ط3، بيروت: دار ابن كثير، 1987م، ص1902، رقم الحديث 4687. و: النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري: **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج1، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص193، رقم الحديث 208.

(102) "سورة المرسلات: دراسة في لسانيات النص"، ص216، وانظر: دي بوجراند، روبرت: **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة وتحقيق: تمام حسان، القاهرة: عالم الكتب، د.ت، ص104.

(103) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص210.

(104) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ص219.